# نظام الأستدعاء واثره في الفنون والعمارة العربية والاسلامية

للدكتور طاهر مظفر العميد
كلية الآداب - جامعة بغداد

في الفنون العربية الأسلامية على اختلاف مدارسها وطرزها من فنون تشكيلية ، مثل النحت والتصوير باساليبه وطرزه ومدارسه المتعدده ، كالتصوير على الجدران بالرسوم المائية ، والتصوير على المخطوطات والنمنمات والكتب الأدبية والتاريخية والطبية والهندسية وغيرها مما تحفل به الحضارة العربية .

ومن فنون زخرفية ، مثل الزخارف على الجدران وعلى الجص والآجر وعلى القطع الخشبية والفخارية والمعدنية ، وعلى آثاث المنزل المتنوعة ، وعلى أدوات الكتابة ، وآواني الأكل والشرب ، وعلى الانسجة والملابس والدستور ظاهرة تبدو واضحة المعالم ، لاتخفى على المتخصصين في الميدان الفني وعلى اصحاب الاذواق الفنية ، تلك هي ظاهرة الوحدة في الفن العربي الاسلامي .

والفن العربي الاسلامي ، مثل غيره من الفنون العالمية الاخرى ، تاثر ببعض الاساليب الفنية السابقة والمعاصرةله ، مثل الفن الاغريقي والهلنستي والبيزنطي والصيني والساساني .

ويستطيع اي باحث في هذا الفن ، او متذوق لأساليبه وطرزه وانماطه ، او مؤرخ لنشأنه وتطويره وانتشاره ، ان يحدد الملامح الفنية التي قام عليها واخذ منها وتأثر بها في اولى مراحل نشأته ، وفي الخطوات المبكرة لترعرعه وتبلوره حتى غدا فناً عالمياً له سماته المحددة وأساليبه وتطوره .

ولكن هذا التأثير بالأساليب لاجنبية المختلفة من الفنون السابقة للاسلام ، لم يكن كبيراً في جميع مجالات الفنون العربية الى الدرجة التي يبالغ فيها المتشرقون والباحثون ، والتي تصل احياناً الى درجة الغلو ، وانكار حق العرب في اشادة مبانيهم واقامة عمائرهم وتطوير فنونهم .(١)

ولقد ذهب فريق من علماء الآثار الغربيين ، المتخصصين بالدراسات الشرقية ، وعلى وجه الخصوص اوائلهم الذين عملوا في حقل الدراسات العربية والاسلامية ، الى نسبة كل ظاهرة معمارية فريدة او متميزة ، وكل عمل فني متقن كبير ، وتخطيط معماري عظيم ، الى حضارات اجنبية سابقة لحضارة العرب ، والى اصول اجنبية غير عربية ، مثل الفرس او البيزنطيين وغيرهما ، ولقد ذهبوا بعيداً في هذا المضمار ، وغالوا في هذه النسبة .

وصرف العلماء منذ ذلك الحين ...

بل واسرفوا في الغلو ، حتى ليخيل للباحث والمتتبع بأن الفن العربي الاسلامي ماهو في جوهره ومظهره ، الاطراز غير موحد الاسلوب ، تألف من شتان مختلفة من الانماط الفارسية والبيزنطنية والقبطية والهيلينية ، او هو مرحلة متأخره لتلك الانماط جميعها .

ومع تقديرنا لكل الباحثين والمستشرقين وعلماء الأثار الذين اسهموا في اعمال لتنقيب في مختلف المواقع الأثرية العربية والاسلامية وشاركوا في البحث عن المدن العربية ، وعاونوا في الكتابة عن كثير من اللقى والتحف والمخطوطات ، فضلاً عن مشاركتهم في توضيح مختلف اوجه الحضارة العربية والاسلامية ، وعرفوا العالم بسمات هذه الحضارة ومقوماتها ، فأننا نسجل هنا مع كثير من الأسف بان قسماً كبيراً من ابحاثهم ومؤلفاتهم واستنتاجاتهم وتعليقاتهم يغلب عليها طابع التحيز لغير العرب (٢) .

لقد كانت دراسات علماء الأثار الاسلامية تقتصر اول الامر على وصف الأثار وتحقيق تاريخها ونشر صور موضحة لها ورسوم عنها ، ثم بدات حملة البحث والاستقصاء عن المصادر الفنية لتلك الاثارة واصولها . وكانت هذه الحملة اهم ماشغل به المستشرقون منذ مايقرب من مائة سنة ، ومازال البحث عن المصادر يحتل مكان الصدارة من بحوثهم ، وكان « ماكس فان برشم » اول من اتجه هذا الأتجاه في البحث والدراسة ، وهو الذي نشر مقالين في سنة ١٨٩١ ، عنوانها « مذكرات في الأثار العربية »(٣) ، ثم جاء ( جاييه ) فنشر كتاباً في سنة ١٨٩٣ عنوانه « الفن العربي » .(٤)

وصرف العلماء منذ ذلك الحين جهود مضنية في دراسة المصادر ، وجرتهم هذه البحوث الى دراسات مقارنة لعناصر العمارة والزخارف في الفنون السابقة للاسلام ، وخاصة الفنون الساسانية والهلينية والهندية والرومانية والبيزنطية والقبطية . ولهذه الدراسات المقارنة اهمية قصوى ، بل انها يجب ان تتصدر اي بحث في الآثار الاسلامية . غير ان معظم بحوث علماء الاثار المستشرقين ، كما اشرنا ، كادت تغطي عليها عقيدة راسخة ، هي انكار اي فضل للعرب في اقامة مبانيهم وتشكيل فنونهم . ولعل اكثر الأمثلة غرابة على هذا الاتجاه ماسجله « كريزويل » عن بناء قبة الصخرة وزخارفها ، اذ انه قسم عناصرها الى نسب مئوية ، وادعى انه يدخلها (٢٢) في المائة من المصادر الرومانية ، و (٢٢) في المائة من المصادر البيزنطية و(٥٥) في المائة من المصادر السورية المسيحية . ويبقى (١) في المائة لم يحدده العالم الأثري .(٥)

ولم يكلف المستشرقون أنفسهم البحث في حضارة العرب التي أقاموها في اقطار عديدة من مواطنهم الكبير قبل الاسلام في العراق والشام وشبه الجزيرة العربية .

وعندما تناول البعض منهم دراسة حضارة العرب فأن انظارهم اتجهت في موضوع العمارة والفنون العربية ، الى مواضع في الجزيرة العربية ، وعلى وجه الخصوص ، الى تلك البقعة المباركة ، التي نزل فيها الوحي الكريم على رسول الله ﷺ ، وفاض على العالم آنذاك ، وخلق فيها حضارة جديدة لها من القوة والاصالة ، مما جعلها تحتل مكاناً كبيراً في حضارات البشرية فتناولوا بحثها بوجه معكوس ومتميز .

اذا انهم راحوا يبذلون الجهود في تأكيد وصفهم لعرب تلك المناطق بالتخلف والبداوة . ومن ذلك نماذج لبعض مكتبوا :

كتبت جرترود بل عن عمارة العرب في الجزيرة : « كان الغزاة المحمديون ، مجرد بدو رحل ، سكنهم الخيمة السوداء وقبرهم رمال الصحراء ، وكان سكان الواحات النادرة في غرب ووسط البلاد العربية مثل ماهم عليه اليوم ، يقنعون بنوع قبيح من العمارة من اللبن وجذوع النخل لايزينه اي نقش معقد من وحي الخيال ، ولايصلح الا لابسط الحاجات » (٦) وكتب لامانس : « يبدو ان اغنى اصحاب الاموال من قريش ، وعلى الاقل في الفترة السابقة على الاسلام وكانوا يعيشون في مساكن ، فقيرة ، ويتحدث الشعراء البدويون عن اتساع وارتفاع قدور اصحاب الجود المكيين ، ولكن لايجد المرء قط من يذكر ترف مساكنهم ، ولاحتى مهابه منظرهم ، ولاينطقون ابداً كلمة قصر ، ولم تكن بمكة عمارة ، ولما كان الامر يحتاج بين حين وآخر الى تجديد عمارة المبنى الصغير للكعبة ، فان الأهالي كانوا يضطرون الى الأتجاء لعمال اجانب » (٧) وقد آخذ البروفسور كريزويل جمع نماذج من هذه الامثال وكتب خلاصة تتضمن راي اولئك الباحثين من علماء الآثار والفنون الغربيين بان العرب في الفترة السابقة للاسلام ، والفترة اللاحقة لها في العصر الاسلامي ، في المنطقة التي نزل فيها الوحي الكريم واشرق منها نور الاسلام . اولئك لم يكن لديهم من العمارة او

**الفنون شي . والظاهر ان البرفسور كريزويل قد وقع تحت تأثير تلك الاراء عندما كتب خلاصة الفصلين الاول والثاني الخاصين بالأسلام البدائي Primitive Islam تلك الخلاصة التي تتضمن راية وراي غيره من اولئك العلماء الغربيين . والتي نسطر فيما يلي ترجمة حرفية لها . (٨) .**

« انه ليبدو ان عرب ماقبل الاسلام لم يكن لديهم الا اخشن الافكار عن البناء ، ولم يكن معبدهم الرئيسي ( يقصد الكعبة ) شيئاً اكثر من مساحة صغيرة مسورة باربعة جدران بارتفاع قامة الأنسان ، ولم يحملو الى الاقطار التي فتحوها شيئاً معمارياً يتجاوز مايخدم حاجاتهم العقائدية البسيطة فحسب . وقد احسن ريتشموند في التعبير عن ذلك بقوله : ( ان مدى الامكانيات المعمارية الاسلامية قبل قيام العرب بفتوحاتهم كانت لاتكاد تكفي لاتعبر عن حاجاتهم بطريقة غشيمة الى اقصى درجة ) .(٩) وينطبق هذا القول على العرب المستقرين . ولكن العرب الرحل في ذلك الوقت كان يتكون فهم تسعة اعشار سكان بلاد العرب وكانت الخيمة المصنوعة من الوبر هي أجمل عمارتهم . ولم يكن البدوي الأصيل ليتقبل راضياً ان ينام بين اربعة جدران ويعلو سقف فوق راسه اذ يشعر كما لو كان قد وقع في فخ ، ويمكن القول بأن البدوي منهم كان يعاني من رعب متأصل موروث من الأماكن المقفلة فمن الواضح اذن ان بلاد العرب كانت تحتوي على فراغ معماري يكاد يكون تاماً . وان الصفه العربية يجب الاتستخدم لتعريف عمارة العصر الاسلامي »(١٠)

يظهر لنا من هذه الأراء التي اقتبسنا بعضاً منها ولازالت لدينا عشرات النماذج ، مما كتبوا عن مختلف اوجه الحضارة العربية الاسلامية ، ان اكثر اولئك العلماء والباحثين الغربيين قد اتجهوا وجهة مشتركة هي بحث اصول الحضارة العربية الاسلامية بوجه عام ، وبالتالي اصول العمارة العربية الاسلامية بطريقة يهدفون منها الى نسبة تلك الأصول الى مصادر غير عربية (١١) .

ولعل هذه الفكرة قد وجدت صدى كبيراً لدى البعض من طلاب العلوم الاثرية والباحثين في تأريخها بل ان الفكره اخذت طريقها الى ثقافة اساتذة هذه العلوم في كثير من المعاهد العلمية التي تعني بالحضارة العربية الاسلامية في بعض جامعات العالم العربي . فراحوا يبخسون حق العرب المسلمين في نتاج حضارتهم وتأكيداً لهذه النظرية يقول ديتري برامكي (١٢) : « فالهندسة الاموية المعمارية والفن الأموي مشتقان من الهندسة والفن الرومي او الفارسي »

والواقع فاننا نعترف بان العرب الذين ترعرع على ايديهم الفن العربي الاسلامي ، ونما وتطور حتى اصبح فناً عالمياً ، له سماته واصوله ومدرسته ، كانوا قد خرجوا من الجزيرة العربية في صدر الاسلام ، حاملين لواء الاسلام الى كثير من شعوب العالم ، دون ان يولوا الفن في اول الامر اهتماماً كبيراً ، كما كانوا يفعلون في تحرير الأراضي العربية المغتصبة ، وفي نشر مبادي الدين الجديد ، واجلاء الفرس والروم عن آراضي العراق والشام ومصر وشمالي افريقيا . ولقد كان معروفاً عن العرب في هذه الفترة من التاريخ انهم كانوا يحبون الزهد ويتمسكون بالتقوى ، ويميلون الى حياة الخشونه ، فشغلتهم هذه المعاني عن الأهتمام بالرسم والتزويق والزخرفة والنحث والتصوير .

ولئن ساد حب البساطة ، والتمسك بنصوص من القرآن الكريم واقتفاء السنه النبوية الشريفة ، التي تدعو الى التقشف والزهد ، عهد التحرير والفتوح في عصر الخلفاء الراشدين (رض) ، فان الحال اختلفت فيما بعد اثناء الحكم الأموي ، حيث توطدت اركان الدولة وقويت شوكة العرب في الاقاليم التي حرروحا او احتلوها ، فظهرت طبقة مترفه من الناس جنحت الى اللهو ، ومالت الى حب الدنيا ، فراحت تقتني التحف الجميلة المزوقة ، وتقيم العمائر الضخمة ، وتلبس اللباس الموش ، وتسعى الى ادخال الفن في كل مرفق من مرافق حياتها ، فظهرت - استجابة لهذه الحاجات المختلفة - ، فئات من الفنانين العرب اسهموا بقسط وافر في مختلف نواحي الف ، فظهر منهم المهندس والمعمار والمخطط والعامل والمزوق والخطاط والدهان والمثال والنساخ والمجلد ، وشاركو جميعاً في ارساء فن عربي اسلامي يتميز بالدقة والجمال .

وامتاز الفن العربي الاسلامي بتطوره السريع في الفترات التأريخية المتعاقبة اثناء حكم الدولة الاموية في الاندلس ، والدولة العباسية في بغداد وسامراء اضافة الى ماكان في الشام من تطور سريع في العمارة والبناء والزخرفة وحكم الدولة الطولونية والفاطمية والايوبية في مصر ، فنشات نتيجة هذه الفترات التأريخية أساليب وطرز تعارف الباحثون والمختصصون على تسميتها بالطراز الأموي ، والطراز العباسي ، والطراز الاموي في الاندلس والطراز الطولوني ، والطراز الفاطمي ، والطراز الأيوبي . ( ١٤ )

والواقع فانه لاضير على العرب اذا اشركوا الفنانين المحليين للاقطار التي حرروها او احتلوها في مطلع حكمهم للعراق والشام وشمالي افريقيا وايران ، فانما كانوا يصدرون في هذا عن ميلهم في اشراك الشعوب التي خضعت لهم ، واتاحة الفرصة للمبدعين منهم ضمن السياق العام للدولة العربية ، وانطلاقاً من سماحتهم وانفتاح عقيدتهم الخيرة .

وفي المقابل ، فان اي باحث في حضارة العرب في العصر الاسلامي لايستطيع الانكار بان العرب قدمنحوا غيرهم من الشعوب، تراثاً حضارياً ناضجاً ، واوصلوا سكان الاقاليم التي حكموها الى منازل حضارية راقية ، قلما سجل التاريخ مثيلاً لها . والحضارة الانسانية ، بعد هذا كله ، على اختلاف اساليبها ، وتباين مظاهرها ، وتمايز منشئيها ، ليست ملكاً لشعب دون آخر ، ولا لأمة دون اخرى ، وانما هي نتاج لامتزاج التيارات الحضارية لشعوب كثيرة اسهمت معظمها ، في ارساء قواعدها وتطويرها ، وكان للعرب دور كبير ومتميز في مسيرة الحضارة الانسانية ، لما انتجوه ومنحوه وقد موه لشعوب العالم من معارف وعلوم وفنون واخلاق .

ومن السمات المميزة للحضارة العربية ، الفنون بمختلف اشكالها ومدارسها ومميزاتها ، فلقد اصاب الفن العربي الاسلامي توفيقاً كبيراً بين الفنون العالمية ، وانتشر في رقعة كبيرة من العالم المعروف آنذاك ، ويمكن حصر حدوده الجغرافية على وجه التقريب ، من حدود الصين شرقاً الى ساحل المحيط الاطلسي غرباً ، ومن روسيا شمالاً حتى البحر العربي والبحر الهندي جنوباً . وتنوعت مظاهره ، واختلفت اساليبه ، وتعددت مدارسه ، وتمايزت طرزه ، وتشعبت انماطه ، مظهرت الزخارف على الجص والأجر والخشب والمعدن ، وشيدت عشرات المدن والقلاع والحصون واقيمت مئات العائر دينية منها ومدينة زوقت جدر بعضها بالصور المائية وبالرسوم الجدارية ، وكسيت جدرانها بالفسيفساء ، واقيمت مساجد بدات بسيطة ثم لم تلبث ان تطورت الى غاية الروعة والضخامة ، وشملت الكثير من العناصر المعمارية ، كالمآذن والقباب والعقود والاروقة والمحاريب والمنابر والاعمدة والشبابيك والاقواس ذات الاشكال والهيئات المختلفة ، وترعرعت مدارس للتصوير على الجدران وفي الحمامات والقاعات والقصور والارضيات قوامها مواضيع آدمية وحيوانية ونباتية ، كما زوقت بعض المخطوطات الأدبية والتاريخية والطبية والهندسية بكثير من الصور ، وبرزت اعمال الفنان العربي على المعدن والخشب والحجر والفخار ، ولئن كان الفن العربي قد ساد رقعة كبيرة من العالم ، وشملت منتجاته كل هذا التنوع ، فانه يمتاز عن سائر الفنون العالمية الأخرى بميزة ينفرد به وحده دون سائر الفنون ، وهي الوحدة الفنية التي تجمع مدراسه وطرزه وتجعله فناً موحداً قائماً بذاته .

والفنون العربية تمتاز بوحدتها التعبيرية ، واذا كنت قد اشرت قبل قليل الى انها تمتاز كذلك بالتنوع ، الذي اصبح خاصية من خصائصها ، فان هذا التنوع في الاساليب الفنية لا يتعارض مع خاصية الوحدة ، لانه تنوع شبيه باختلاف لهجات اللغة الواحدة ، في العالم العربي .(١٥)

ومن هنا كان لابد ان تكون التسمية الصحيحة للفنون الاسلامية التي نشأت وترعرعت في العالم العربي وامتدت الى العالم الاسلامي ، ان تشمل صفة العروبة وان نبعد عن حسابنا التسميات العديدة التي اطلقها المستشرقون عن هذه الفنون (١٦)وثمة ملاحظة يدركها كل باحث ومتخصص للفنون العربية الاسلامية ان الكثير من عناصرها تتشابه وتتوحد ، منها العناصر التخطيطية للمساجد الجامعة التي اقيمت في العالم العربي ثم في العالم الاسلامي متأثرة بنظام تخطيط المساجد في صدر الاسلام ، مع ادراكنا لأختلاف هذا التخطيط للمساجد التي انشئت في القسطنطينية ، حيث يرجع هذا الاختلاف للظروف المناخية التي فرضت تخطيطاً خاصاً لها .

ولعل هناك العديد من العوامل التي عملت على توحيد الفنون العربية ، منها طبيعة الامة العربية وحياتها في بيئات جغرافية تكاد تكون متشابه على وجه العموم ، ونظام الاستدعاء .

فمن حيث الموقع الجغرافي كانت اقطار الشرق العربي الاسلامي اقرب اتصالاً ببعضها ، فكانت تنتقل التقاليد المعمارية بينها في سرعة وسهولة نسبيتين ، جعلت لها في مجموعها طابعاً يتميز في الطابع العام عما كان يعاصرها في اقطار غرب العالم العربي الاسلامي (١٧) ولقد كانت الروابط الدينية والثقافية والحضارية قد توطدت الى الحد الذي لم يكن ليضعفها اي عامل مهماً بلغ من القوة فبقيت اواصر القربى والدم العربي والدين واللغة والتقاليد الاسلامية التي انتقلت منذ إنبثاقالاسلام مع الموجات العربية الاولى الى الغرب تجمع بين العرب في المشرق والمغرب ، وبقيت الصلات بينهما قائمة لاتنفصم ، والزيارات والرحلات لاتنقطع وعلى وجه الخصوص من الغرب الى الشرق .

وقد حدث نفس الشي مع تقاليد العماره والفنون العربية ، فان الموجات الاولى التي كانت تتوالى على الغرب الاسلامي ، آتية من الشرق قد حملت معها التقاليد المعمارية الى فرضها الدين الاسلامي والمجتمع العربي منذ البشائر الأولى للحضاره العربية (١٨) .

اما نظام الاستدعاء او أمر تكليف ، والذي يعرف عند الاغريق بـ « الليتورجيا » (١٩) فهو يعني في العالم العربي جمع وحشر الصناع والعمال والمهندسين والمزوقين والخطاطين وكل من يعمل في حرفة من الحرف تتعلق بالعمارة والبناء والهندسة ، من مختلف الأماكن والاقاليم في الدولة وتوجيههم الى عمل رسمي تأخذ الدولة او السلطة على عاتقها القيام به (٢٠) .

ونحب ان نشير هنا بان الخلفاء او الولاة العرب المسلمين الذين كانوا يستدعون العمال والفنانين والمهنيين من اطراف الدولة ويكلفونهم القيام باعمال البناء كانوا يدفعون لهم أجراً لقاء اعمالهم ، على خلاف ماكان يجري عند الرومان والاغريق ودولاً اخرى معاصرة للدولة العربية والاسلامية او سابقة لها اولاحقه . (٢١)

والذي يبدو ان هذا التكليف او الاستدعاء كان معروفاً لدى الخلفاء المسلمين ، منذ عهد الدولة الأموية في الشام ( ٤١ - ١٣٢ هـ ) ( ٦٦١ - ٧٥٠ م ) . وتروي لنا كتب التاريخ امثلة طيبه يتجسد فيها هذا النظام كمثل حي ونابض للتعاون المثمر والمساعدة القيمه التي يتسابق اليها العمال والمهره من الفنانين ورجال الهندسة تشييد العمائر واقامة المباني .

فقد ذكر ان الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان عندما بنى قبه الصخرة في عام ٧٢ هـ ( ٦٩١ م ) استقدم المعمارين والفنانين لتنفيذ مشروعه هذا .

وتشير العديد من النصوص التاريخية اثناء حديثها عن العمارة الكبرى في المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة في عهد الخليفه الاموي الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ - ٩٦ هـ ) . فيشير البلاذري انه في عام ٨٠٧ هـ كتب الخليفة الوليد الى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه ، وبعث اليه في نفس الوقت بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط من اهل الشام ومصر . وولى القيام بأمره والنفقه عليه صالح بن كيسان »(٢٢) .

ويذكر اليعقوبي ان الوليد امر عمر بن عبد العزيز ان يهدم الجامع وهدمت البيوت المجاورة له كما هدمت حجرات زوجات النبي ( ص )

وضم مكانها الى المسجد الجديد . ثم يضيف اليعقوبي ان ملك الروم ارسل مائه الف مثقال من الذهب ، ومائة عامل ، واربعين حملاً من الفسيفساء ، وان العمل قد كمل في سنة ٩٠ هجرية . (٢٣) ولا يذكر الدينوري سوى الاربعين حملاً من الفسيفساء (٢٤) غير ان الطبري كان اكثر تفصيلاًفقال ان الهدم كان قد بدا في صفر سنة ٨٨ هـ ، واعلم الوليد ملك الروم بانه قد اصدر امره بهدم المسجد وطلب مساهمته فارسل اليه الاخير المساعدة التي اشرنا اليها انفاً ، ويذكر الطبري رواية تستوقف النظر هي انه قد أمر ، بالاضافة الى ذلك ، بالبحث عن الفسيفساء في الاماكن المتخربة وارسالها الى الوليد الذي بعث بها الى عمر بن عبد العزيز . (٢٥)

ويشير المقدسي ايضاً الى نقل الصناع فقال : « وكتب الوليد الى ملك الروم انا نريد ان نعمر مسجد نبينا الاعظم فأعنيفيه بصناع وفسيفساء » وبناء على ذلك فانه بعث اليه باحمال وبضعة وعشرين صانعاً . كان من بينهم عشرة بلغت مرتباتهم وحدهم ٠٠٠ /١٨٠ دينار (٢٦) . ويذكر ابنبطوطة طلب انوليد للمساعدة ويقول ان ٠٠٠ / ٨٠ مثقال من الذهب قد ارسلت . (٢٧)

لانريد ان نناقش في هذا البحث القيمة التأريخية للرواياتالتي ذكرها المؤرخون والجغرافيون العرب عن مساهمة عمال اجانب في البناء والعمارة ، وعلى وجه الخصوص في عمارة المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة ، فلقد بحث الاستاذ الدكتور فريد شافعي ، العالم الاثري العربي هذا الموضوع باسهاب في كتابة « العمارة العربية في مصر الاسلامية » (٢٨) وناقش ماكتبه علماء الاثار الغربيين الذين استغلوا مثل هذه النصوص ليعطوا لهؤلاء العمال الاجانب دوراً كبيراً في البناء ونقل الاساليب البيزنطية والقبطية الى الفنون العربية الاسلامية .

ولعل افضل مثل لنظام الاستدعاء في عهد الدولة العباسية ، هو استدعاء المنصور والمعتصم العمال لبناء مدينتي بغداد وسامراء .

وتشير النصوص التأريخية ان المنصور بعد ان اطمأن اطمئناناً تاماً الى الموضع الذي يبني فيه مدينته المدورة ، وبعد ان اعد المال اللازم لجميع تكاليف البناء التي يحتاجها مشروعه الكبير ، ارسل الى عماله وولاته في مختلف الاقاليم العربية يطلب معونتهم في توجيه العمال والفنانين اليه . ويشير اليعقوبي الى هذا الأمر فيقول : « ثم وجه في احضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة وقسمه الأرضين حتى اختط مدينته المعروفة بمدينة ابي جعفر واحضر البنائين والفعله والصناع من النجارين والحدادين والحفارين » (٢٩) .

ويذكر المؤرخون والجغرافيون الاماكن والمدن التي استعان المنصور بعمالها وفنانيها ومهندسيها فيذكرون بان الخليفة وجه في حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة » (٣٠) .

ونهج الخليفة المعتصم عند تشييده لمدينة سامراء نهج الاستعانة بالايدي العاملة في شتى الاقاليم العربية فقد روى اليعقوبي بهذا الصدد ان المعتصم : « كتب في اشخاص الفعله والبنائين واهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات ، وفي حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وماوالاها من بغداد وسائر السواد ومن انطاكية وسائر سواحل الشام ، وفي حمل عمله الرخام وفرش الرخام ، فاقيمت باللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام »( ٣١)

وروى اليعقوبي في موضع آخر ان المعتصم استعان برجال الفنون والمهنيين فقال : « واقدم المعتصم من كل بلد من يعمل عملاً من الاعمال ، او يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغرس ، وهندسة الماء ووزنه واستنباطه ، والعلم بمواضعه من الارض ، وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها ، وحمل من البصرة من يعمل الزجاج والخزف والحصر ، وحمل من الكوفة من يعمل الخزف ومن يعمل الأدهان ومن سائر البلدان من اهل كل مهنة وصناعة » (٣٢) .

ولاريب ان العرب قد استفاد وا كثيراً من هذا التعاون ، اذ بفضله انتقلت الآساليب الفنية والطرز المعمارية في مختلف مجال الفنون العربية والاسلامية من قطر الى اخر ومن مدينة الى اخرى ، وقد ادى انتقال هذه الاساليب الفنية المختلفة الى امتزاج المدارس والانماط الفنية والتقاء فروعها بعضها مع البعض الآخر ، كما كان له ابعد الأثر في وحدة الفن العربي الاسلامي .

ومما لاشك فيه ان االطرز الفنية التي ازدهرت في الشام وواسط على يد الامويين ، لابد وانها قد التقت بالطراز الفنية المتواضعة التي نمت وترعرعت في المدن العربية الاولى كالبصرة والكوفة والفسطاط اضافة الى منطقتي الموصل والجزيرة .

وفي وسعنا ان نقرر في ثقة اكيدة بان المهندسين والعمال والفنيين الذين ساهموا في بناء المشاريع الكبيرة و الذين خططوا لمدن عظيمة مثل بغداد وسامراء ، وزوقوها بالطرز الفنية ، أنهم كانوا من العرب المسلمين الذين عاشوا في مدن عربية اسلامية تحت حكم الامويين تاره ، وحكم العباسيين تاره اخرى . وان اجتماع هذا الحشد الكبير المؤلف من مئات الفنانين والمعمارين والحرفيين في مكان واحد ولسنين عديدة ، كما حدث في بناء بغداد وسامراء ، يعتبر بحد ذاته مؤتمراً عالمياً ضخماً يتبادل فيه هؤلاء وجهات النظر المعمارية والفنية ، وياخذ بعضهم من البعض الآخر مختلف الأساليب الفنية ، المتطورة والناضجة ، لتشكل في النهاية مدرسة معمارية وفنية تنمو افكارها واساليبها ، وتتطور مع تطور الانماط وترعرعها حتى تمشي مدرسة عالمية . تطغي على مايعاصرها من مدارس او انماط محلية . وهذا ماحدث في الطراز المعماري العربي في صدر الدولة العباسية . والذي يعود بعض الفضل فيه الى استقدام الاعداد الكبيرة من العمال والفنيين والمعمارين والحرفيين العرب من مختلف اقطار العالم العربي الاسلامي في ظل نظام الاستدعاء .

## الهوامـــش

١ – الدكتور طاهر مظفر العميد ، « الاثار الاسلامية والابداع الفكري » مجلة كلية الاداب – جامعة بغداد – العدد (٢٥) سنة ١٩٧٩ ،صفحة ٦٧٤ – ٦٧٥ .

٢ – في وسعنا ان نشير هنا الى نماذج من الابحاث والمؤلفات التي يظهر فيها هذا التحيز واضحاً :

جروترود بل ، كتاب « الاخيضر » صفحات ١٤٥ – ١٤٨ .

كريزويل كتاب « العمارة الاسلامية الاولى » جـ ١ صفحة ٦

Creswell, Early Muslim Architecture, 1, p. 6 وينظر نفس الكتـــاب ايضـــا ، cre

الصفحات ٣٨٨ – ٣٨٩ .

بحث « نشأت المئذنه وتاريخها » لكوتيل في مجلة الجمعية الشرقية الامريكية ، ٣٠ صفحة ١٣٣ .

وينظر الصفحة ١٤٧ من كتاب « العمارة الاسلامية الفرنسية » لمارسية وينظر كتاب كويزويل « المختصر » صفحة ١٤٢

Ashort Account of Early Muslim Archit ecture,

وينظر صفحة (٤٧) من كتاب بريجز « العمارة المحمدية »

Mohammadan Architecture in Egypt and Palestine, P.47.

Max van Bercham. Notes d. Archeologie.

Jouenal Asiatigue, 80 serie, Tomes xvll, xix, 1891.

Albert Gayet . L Art Arabe, Paris, 1893.

**Creswell . Early Muslim Architecture .**

**Umayyads , Early Abbasid and Tulunids .**

† **2 vols. Oxford 1932 . 1940, vol. 1, P. 90.**

انظر احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها . المدخل دار المعارف بمصر . صفحة ٩ .

٦ ـ نقتبس ماكتبته بل من كتابها .

**Palace and Mosgue at** ukhaidir **Oxford, P. Vll.**

ونقل عنها « كريزويل » هذا النص في كتابه :

**Early Muslim Aechitecture , Vol. 1. P. 7.**

انظر فريد شامغي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، صفحة ٣٩ .

- ٧

Lammens, Taif a la Veille de l,hegire, VIII, P. 183, Creswell, Early Muslim Architecture, 1, P. 7, ft. n. 7.

٨ - فريد شافعي ، نفس المصدر ، صفحة ٤٠

- ٩

Richmond . Moslem Architecture, P. q.

- ١٠

Creswell . Early Muslim Architecture, 1, PP. 42. 94.

١١ - فريد شافعي ، نفس المصدر ، صفحة ٤٤ .

١٢ ١ وهو استاذ علم الآثار بالجامعة الأمريكية في بيروت

١٣ - المؤتمر الثاني للآثار ، بحث الدكتور ديمتري برامكي صفحة ١٤٠ .

١٤ - طاهر مظفر العميد ، الآثار الاسلامية والابداع الفكري ، مجلة كلية الأداب ، جامعة بغداد ، العدد ٢٥ ، سنة ١٩٧٩ ، صفحات ٦٧٥ - ٦٧٦

١٥ - احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، صفحة ٤٣ .

١٦ - اطلق المستشرقون على هذا الفن تسميات عديدة وسموه باسماء بعضها غير دقيق ، والبعض الآخر غير جامع ، وبعضها لايتفق مع الحقائق العلمية والتأريخية . ومن هذه التسميات « الفن الشرقي Saracenic Art ولفظه Saracenic مشتقة على الارجح من كلمة Saraceni اليونانية وقد كان الاغريق القدماء يطلقونها على البدو الذين يقيمون في بادية الشام . ولعل هذه الكلمة تشير في اللغة اليونانية الى كلمة « شرق » العربية . وسموه « الفن المغربي Moorish Art . ولفظه مشتقة من لفظ Maurl حيث كان الرومان يطلقونه على اهل بلاد المغرب الحالية حيث كانت تعرف عندهم باسم موريتانيا Mauretania كما انهم اطلقوا عليه اسم « الفن الاسلامي » و « الفن العربي » « والفن المحمدي » وغيرها من الاسماء .

١٧ - فريد شافعي ، نفس المصدر ، صفحة ٢٧٦ .

١٨ - المصدر السابق ، صفحة ٢٧٨ .

١٩ - الليتورجيا كلمة اغريقية اسمها يعني كما هو واضح في قاموس Liddell and Scott الاغريقي ، الانكليزي Lexicon , oxford , Impression of 1961

1 . Apublic duty . which The richer citzens discharged at

Their own expense.

2. Any Serviceor administra ton

3. The public Service of The gods

ومنها جاءت كلمة Liturgy والتي تعني الطقس الديني - الطقوس الدينية ، وطقس القربان المقدس والكلمة من الفعل تعني .

1. At Athens of serve public offices at ones own expense or cost.

2. to perform public duties to serve The people or state.

3. to serve amaster

٢٠ – كنت اول الباحثين الأثار الاسلامية من أطلق اسم نظام الاستدعاء او « امر التكليف » فيما يتعلق بالاستفاده من خبرات الفنانيين والعمال العرب والمسلمين . اذ لم اجد في قواميس اللغة العربية او ماترجم عن اللغة الاغريقيه أنسب كلمة او اصطلاح يوازي كلمة « الليتورجيا » في العربية من اصطلاح « نظام الاستدعاء » أو « أمر التكليف » ( انظر كتابنا بغداد مدينة المنصور المدورة ، صفحة ١٨٦ ) .

٢١ – تشير العديد من المراجع العربية الموثوقه وماكتبه الرواد الأوائل من مؤرخين وجغرافيين عرب بانه عندما تكامل عدد البنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين الذين وفدوا على الخليفة المنصور من مختلف الأقاليم والاقطار أجرى عليهم الخليفة الارزاق واقام لهم الاجره (انظر كتاب البلدان لليعقوبي ، صفحة ٢٣٨ ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى الجزء الاول صفحة ٦٧ ) .

٢٢ – البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة ٢١ ، ياقوت ، معجم البلدان ٤ / ٤٦٦ .

٢٣ – اليعقوبي ، التاريخ ، ٢ / ٣٣٩ – ٣٤٠ ، الطبري ٢/ ٣٣٩ ، فريد شافعي ، نفس المصدر ، صفحة ٥٨١ .

٢٤ – الدنيوري ، الاخبار الطوال صفحة ٣٣٩ . فريد شافعي ، صفحة ٥٨٥ .

٢٥ – الطبري ٢ / ١١٩٤ .

٢٦ – المقدسي ، احسن التقاسم في معرفة الآقاليم ، صفحة ٨١ .

٢٧ – ابن بطوطة ، رحلة ١ / ٢٧١ ، فريد شافعي ، نفس المصدر ، صفحة ٥٨٥ .

٢٨ – راجع ماكتبه الدكتور فريد شافعي ، في كتابة العمارة العربية في مصر الاسلامية بهذا الخصوص . الصفحات ٥٨٤ – ٦٣٤ اثناء مناقشته لأصل المحراب .

٢٩ – اليعقوبي ، البلدان ، صفحة ٢٣٨ ، وانظر الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ١ / ٦٦ .

٣٠ – الطبري ٦ / ٢٣٧ ، ياقوت ، المعجم ١ / ٦٨١ ، ابن الآثير ، الكامل في التاريخ ، ٥ / ١٥ .

٣١ – البلدان ، صفحة ٢٥٨ .

٣٢ – البلدان ، صفحة ٢٦٤ .

## المراجع والمصادر :


**ابن الاثير** ( ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير ) .

**الكامل في التاريخ**

ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار مصر ، سنة ١٩٣٨ م - ١٣٥٧ هـ .

**البلاذري فتوح البلدان ، القاهرة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م .**

**الخطيب تاريخ بغداد ، القاهرة ١٣٤٩ - ١٩٣١ م .**

الدنيوري الاخبار الطول ليدن ١٩١٢ م .

السمهودي وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى ، القاهرة ، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م

**الطبري تاريخ الامم والملوك ، القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .**

المقدسي احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ م .

**الواقدي فتوح الشام ، مصر ١٣٧٣ هـ .**

**ياقوت معجم البلدان ، لايبزك ، ١٨٦٦ م .**

**اليعقوبي البلدان ، ليدن ١٨٩٢ م**

التاريخ

**احمد فكري مساجد القاهرة ومدارسها المدخل ؛ مصر**

**العميد ( الدكتور طاهر مظفر )**

- بغداد مدينة المنصور المدورة ، النجف ١٩٦٧ م .

- الآثار الاسلامية والابداع الفكري ، مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد - العدد (٢٥) سنة ١٩٧٩ .

**شافعي ( الدكتور فريد )**

**العمارة العربية في مصر الاسلامية ، القاهرة ١٩٧٠ .**

Creswell, Early Muslim Archiecture, II,London. 1932, 40.

Briggs Muhammadan Architecture in Egypt and palestine, oxford, 1924

Bell palace and MosQue at ukhaidir, oxfob, 1914.

Richmob Moslem Architecture, London, 1926.

Creswell. Early Muslim Architecture, I,p.6